الفصل الخامس

المسائل العقيدية من خلال القصة

تتفرع المسائل العقيدية التي استنبطها الدارس من قصة الفتية المؤمنين ما يلي:

٥-١ مسألة زيادة الإيمان ونقصانه:

وهذه المسألة تتفرع عن قولنا في التوحيد إنه إيمان، وهو أن التوحيد إذا كان إيماناً، كان تكامله بكمال الإيمان، وتناقصه بنقص الإيمان، وكان المؤمنون متفاضلين في إيمانهم، كما هم متفاضلون في أعمالهم. فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ استدل بعض العلماء على أن الإيمان يزيد وينقص، فثبتوا بهذه الآية أن الإيمان قابل للزيادة، وإذا كان قابلا للزيادة فذكرت الزيادة، كان عدمها نقصانا، والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣٤٦] وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾[٣٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾[٣٤٨].

---

[٣٤٦] سورة الأنفال: الآية ٢.

[٣٤٧] سورة مريم: الآية ٧٦ .

[٣٤٨] سورة المدثر: الآية ٣١.

٥-٢ مسألة الفتية أكثر إقبالا على الإيمان من الشيوخ.

وذلك مما فهمنا من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾، يدل سياق القصة أنها تصف إيمان الفتية المؤمنين وإبطال الكفر، وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم فتية آمنوا بربهم، والفتوة صفة جامعة لكثير من خصال الخير والاستقامة والشهامة والنبل، ومن أهم معالمها الفدائية والاستبسال والتطلع إلى الكمال[٣٤٩]. وقد وصف الله تعالى بها إبراهيم حين قال: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾[٣٥٠].

واستدل ابن كثير من الآية السابقة على أن الفتى أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا، وأما الشيوخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم، و لم يسلم منهم إلا قليل[٣٥١].

وأما سعيد حوى فقد استدل من الآية السابقة على أن الإنسان إذا صدق في طلب الحق في بدايته، أعطاه الله الهداية وربط على قلبه، وفي هذا درس لكل من يريد الدخول في الإسلام، أن عليه أن يصدق مع الله عز وجل في الدخول.[٣٥٢]

٥-٣ مسألة الهجرة والاعتزال في أيام الفتن:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾[٣٥٣]، تقول الروايات أن الحاكم

---

[٣٤٩] يمكن تعريف الفتوة لمعنيين، هما تلخيص لأدب الفتوة في تاريخنا، الأول: الفتوة بذل الندى وكف الأذى، وترك الشكوى، واجتناب المحارم، واستعمال المكارم. والثاني: الفتى من لا يدّعي قبل الفعل، ولا يزكّي نفسه بعد الفعل. سعيد حوى، مرجع سابق، ٣١٦٦/٦.

[٣٥٠] سورة الأنبياء : الآية ٦٠.

[٣٥١] ابن كثير، مصدر سابق، ٧٣/٣-٧٤، وراجع أيضا: سعيد حوى، مرجع سابق، ٣١٦٧/٦.

[٣٥٢] سعيد حوى، نفس المرجع، ٣١٦٧/٦.

الكافر أمهل الفتية مدة، لينظروا في أمرهم ويرجعوا عن دينهم الجديد، وقال ابن كثير تعليقا وتعقيبا على هذا الإمهال للفتية: (وكان هذا من لطف الله تعالى بهم، فإنهم في تلك المهلة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفا على دينه، ففي هذه الحالة تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع)[٣٥٤]. وقال عبد الكريم زيدان معقبا: والواقع أن ما قاله ابن كثير يخص حالة معينة هي عزلة المؤمن عن الناس واعتزاله لهم وعدم مخالطتهم إذا كان في هذا كفاية لسلامة دينه من الفتن، ولكن لا يفيد ذلك، بل لا بد من الهجرة من بلده الذي لم يعد بلدا آمنا له، ولا يمكن للمؤمن أن يقيم دينه فيه، ففي هذه الحالة يجوز للمؤمن الهجرة من بلده[٣٥٥].

والآية السابقة صريحة في الفرار بالدين، وهجرة الأهل والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة، ومن اعتزال الفتية قومَهم والخروج من محيطهم والتخفي عنهم باللجوء إلى الكهف بعيدين عن قومهم، لعجزهم عن مقاومة قومهم، وعجزهم أيضا عن بقائهم على دينهم الحق في ظل تلك الأوضاع القاسية، نستنتج أن المؤمن إذا وجد نفسه عاجزا عن إقامة دين الله تعالى في نفسه، وأصبح مهددا بالافتنان في دينه، ففي هذه الحالة تجب عليه الهجرة من بلده إن كانت الهجرة ممكنة.

وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم فارا بدينه، وكذلك أصحابه، وهجروا أوطانهم، وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأخواهم رجاء السلامة بالدين، والنجاة من فتنة المشركين، وقد اعتزل رجال من أهل بدر، فلزموا بيتهم بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلم يخرجوا إلا إلى القبور[٣٥٦].

يختلف الناس في مشروعية الاعتزال فمن كان قوي الإيمان يؤثر في غيره دون أن يتأثر بهم كثير التأثير، فالمستحب في حقه أن يخالط الناس، وأن يؤثر فيهم بالخير ما

---

[٣٥٣] سورة الكهف: الآية ١٦

[٣٥٤] ابن كثير، مصدر سابق، ٣/٧٤-٧٤.

[٣٥٥] عبد الكريم زيدان (٢)، مرجع سابق، ١/٥٦٩.

[٣٥٦] أحمد فريد، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، تيسير المنان في قصص القرآن، الدمام: دار ابن الجوزي، ص٨٨.

استطاع، ومن كان ضعيف الإيمان ولا يؤثر فيهم، ويخشى عليه الفتنة بهم وضياع دينه وإيمانه، فالمستحب في حقه اعتزالهم. أما اعتزال أهل الشر والفساد إذا عصوا الله عز وجل، أو خاضوا فيما يغضب الله تعالى، فواجب على كل مسلم يرجو الله واليوم الآخر اعتزالهم، وإذا كان الناس يطيعون ويعصون، فعلى المسلم أن يخالطهم في الطاعة، كصلاة الجماعة والجمعة، ودروس العلم، وتشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وأن يعتزلهم إذا عصوا الله عز وجل، وكذلك المكروهات، وفضول المباحات[٣٥٧].

٥-٤ مسألة وجود المؤمن في مجتمع الشرك:

والأصل في هذه المسألة هو النتيجة الفعلية لهذا الوجود، وليس الوجود ذاته، فإذا غلب على هذا الوجود معنى الإقرار للشرك والمجتمع الجاهلي كان خطأ، وإذا غلب على هذا الوجود معنى الإنكار على الجاهلية والشرك كان صوابا، وهنا نجد العلاقة بين هذه الجماعة المسلمة والمجتمع الذي يقوم على الشرك بالله سبحانه وتعالى، لأن الإسلام لا يلتقي مع الشرك، وقد عرف سيد قطب المجتمع الذي يقوم على الشرك بأنه المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته، وتصوراته، وقيمه، وموازينه، ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه، وبيّن أيضا أن المجتمع الذي يقوم على الشرك هو المجتمع الجاهلي يتمثل فيه صور شتى كلها جاهلية؛ قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى، ويفسر التاريخ تفسيرا ماديا، وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى، ولن يجعل ملكوت السماوات والأرض، ويعزله عن ملكوت الأرض، ولا يحكم قيمه التي جعلها هو قيما ثابتة في حياة البشر، وهو بذلك ينكر أو يعطل ألوهية الله في الأرض[٣٥٨].

وبعد أن تبين الفئة الطريقين، واختلاف المنهجين، فلا سبيل إلى الالتقاء، ولا للمشاركة في الحياة، أعلنوا إيمانهم بالله سبحانه وتعالى، وأنكروا الانتماء إلى مجتمع

---

[٣٥٧] أحمد فريد، مرجع سابق، ص٨٨-٨٩.

[٣٥٨] سيد قطب (٢)، مرجع سابق، ص١٠٥-١٠٦.

الشرك، وثبوت الإنكار على الجاهلية والمجتمع المشرك بانتمائهم للجماعة المسلمة المقرّة بوحدانية الله سبحانه وتعالى وممارسة الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وأما اعتزالهم باللجوء إلى الكهف فهو تصرّف اضطراري إذ ثبتت استحالة مفارقة هؤلاء الناس للشرك، فتصبح حياتهم بصفة دائمة مثل حال وقوعهم في الشرك والمنكر الذين يجب اعتزالهم فيهما، فيتقرر الاعتزال بصفة دائمة، وخاصة في حالة ضعف المؤمنين، ولذلك تأتي الآية ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[٣٥٩]، لتثبت أن الاعتزال إنما يكون باعتبار ما عليه الناس من منكر وشرك وعبادة لغير الله سبحانه وتعالى، وليس للناس أصلا[٣٦٠].

٥-٥ مسألة وضوح الرؤية أمام المؤمنين :

إن وضوح الرؤية بالنسبة للمؤمنين أمر أساسي ومهمّ في معرفة طبيعة الشرك وسبيل المشركين والمجرمين، وتقييمهم للمجتمع المشرك، لكي لا تختلط عليهم الأفكار والتصورات[٣٦١]، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٣٦٢].

---

[٣٥٩] سورة الكهف: الآية ١٦

[٣٦٠] انظر: رفاعي سرور، د.ت، حكمة الدعوة، مكتبة الحرمين للعلوم النافعة، ص٥٨-٥٩. (بتصرف).

[٣٦١] أصبحت هذه الكلمة مصطلحا إسلاميا، قام بعض المفكرين المعاصرين باستجلاء أساسه الفكري العقدي للإسلام وصياغته صياغة جديدة تربط المسلم بالمصدر الأساسي لهذه العقيدة وهو القرآن الكريم، والتطبيق العملي له وهو السنة النبوية، فنشأ البحث في التصور الإسلامي ومقوماته، والتصور الإسلامي هو: الفكرة العامة التي جاء بها الإسلام عن الوجود كله (الله، الكون، الحياة، الإنسان)، ومقوماته هي: مجموعة الحقائق العقدية الأساسية التي تنشئ في عقل المسلم وقلبه ذلك التصور الخاص للوجود، وما وراءه من قدرة مبدعة، وإرادة مدبرة، وما يقوم بين هذا الوجود وهذه الإرادة من صلات وارتباطات، ولعل أول من استخدم هذا المصطلح (أي: التصور الإسلامي) هو أبو الأعلى المودودي في كتابه: (الحضارة الإسلامية؛ أسسها ومبادئها)، ثم أصدر سيد قطب كتاب (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) في القسمين: القسم الأول: الخصائص، والقسم الثاني: ومقومات التصور الإسلامي. راجع: ضميرية، مرجع سابق، ص١٣٠-١٣٢. (بتصرف). أبو الأعلى المودودي (٢)، د.ت، الحضارة الإسلامية؛ أسسها ومبادئها، بيروت : الدار العربية. سيد قطب (٣)، مرجع سابق، ص٤١.

[٣٦٢] سورة الأنعام : الآية ٥٥.

قال سيد قطب في ظلاله تعقيباً على هذه الآية:

"فهو شأن عجيب!، إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة، والحركة بهذه العقيدة، إن هذا المنهج لا يعني ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب، إنما يعني كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا، إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق، إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح، واستبانة سبل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك أن أي غبشٍ وشبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهةً في موقف المؤمنين وفي سبيلهم، فهما صفحتان متقابلتان وطريقان مفترقان"[٣٦٣].

ووجود الجماعة المؤمنة يفرض على المؤمنين تقييم الواقع الذي قامت فيه، ويدفعهم أن يقيّموا مجتمعهم الجاهلي، لأن التصور الذي لا يصل بصاحبه إلى حد تقييم الواقع لا يصل إلى حد الكمال والصواب[٣٦٤].

وتقييمهم ومواجهتهم لهذا المجتمع يقوم على أساسين:

أولاً: أساس الاعتقاد يقوم به وجود الجماعة في هذا الواقع:

وجود المؤمن الموحد في مثل هذا المجتمع، وبتقييمه له يُعدُّ من تصورات العقيدة الشاملة، وتدل على إيمانهم وتوحيدهم لله وحده، والله سبحانه وتعالى بيّن لنا أحوال الفتية المؤمنين في قولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣٦٥]، فالتفتوا إلى ما عليه

---

[٣٦٣] سيد قطب، مرجع سابق، ٢/١١٠٥.

[٣٦٤] انظر: رفاعي سرور، مرجع سابق، ص٥٩.

[٣٦٥] سورة الكهف: الآية ١٤.

قومهم فاستنكروه، واستنكروا المنهج الذي يسلكونه في تكوين العقيدة، واتبعوا بتقويمها بموازين العقيدة قائلين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾[٣٦٦]، هذا الإخبار بمعنى الإنكار[٣٦٧]، وهذا تقييم لواقع قومهم بمقتضى تصورهم الصافي، وقيمة هذا التقييم على الحالة الجاهلية لا تنتهي عند اعتبارها شرطا لصحة الاعتقاد الصحيح، ولكنها كذلك من قبيل أوامر الله عز وجل، كلّف المؤمنين بها ليكونوا شهداءه عز وجل في الأرض، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣٦٨]، فوصفهم بأنهم وسطٌ أي: عُدولٌ، وبأنهم يشهدون على الناس، أي: بأن الله تعالى أمرهم بكذا، وفرض كذا، وبلّغهم دينه، وأزال عُذرهم[٣٦٩]، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ))[٣٧٠].

وقد سلك الفتية في بيان حقيقة هذا التوحيد، وبينوا حقيقة الشرك الذي وقع فيه المشركون، وأنه هو شرك العبادة.

ثانيًا: أساس تنفيذي تتم به مواجهة الجماعة لهذا الواقع:

من خلال التقييم على أساس تنفيذي يتحدد أسلوب المواجهة المباشرة مع المجتمع المشرك، وهذا يبدو جلياً في رفض الفتية الشرك بالله، وذلك في قولهم: ﴿إِذْ قَامُوا۟

---

[٣٦٦] سورة الكهف: الآية ١٥.

[٣٦٧] والإشارة في ﴿ هؤلاء﴾ إلى قومهم لقصد تمييزهم بما يخبر به عنهم، وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجّب من حالهم وتقضيح صنعهم، وهو من لوازم قصد التمييز، ثم إن كان الكلام من مبدئه خطابا لقومهم، أعلنوا به إيمانهم بينهم، وكانت الإشارة على ظاهرها، وكان ارتقاء في التعريض لهم بالموعظة، وإن كان الكلام من مبدئه دائرا بينهم في خاصتهم كانت الإشارة إلى حاضر في الذهن، كقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: مشركو مكة. انظر: ابن عاشور، مصدر سابق، ٢٧٤/٧-٢٧٥.

[٣٦٨] سورة البقرة: الآية ١٤٣.

[٣٦٩] خالد عبد الرحمن العك، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، صحيح شعب الإيمان، عَمان: المكتب الإسلامي، ص٣٣.

[٣٧٠] صحيح البخاري، رقم حديث (١٢٧٨). ومسلم، رقم حديث (١٥٧٨).

فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾[٣٧١]، وبعد إثبات رفضهم عبادة غير الله سبحانه وتعالى واجهوا هذا المجتمع علنيًّا، استفاد عبد الكريم زيدان من موقف الفتية المؤمنين أن على الدعاة أن يصدعوا بالحق، ويعلنوا موضوع دعوتهم أمام الحكام المجرمين، ليجرئوهم على الوقوف في وجوه الظلمة من الحكام، وذلك وفق رؤيتهم ببصيرتهم وبقرائن الحال أن جهرهم بالحق ومواجهة الحكام الظلمة بأحقية دعوتهم خير للدعوة من سكوتهم أمامه أو من أخذهم بالرخصة، لأن المؤمن ينظر بنور الله عز وجل، وبقدر إيمانه وعمقه في نفسه وإخلاصه لربه تكون قوة نوره الكاشف للموقف الصحيح الذي ينبغي أن يفقهه، ولو أدى موقفه ذلك إلى قتله واستشهاده، ما دام يرجو من فعله تحقيق مصلحة شرعية لدين الإسلام، ويبدو أن أولئك الفتية لاحظوا المصلحة الشرعية فيما قالوه أمام الكافر وصدعوا بالحق، ودعَوه إليه و لم ترهبهم قوّته[٣٧٢].

ومن هذا المنطلق فالإيمان القويّ هو الذي دفعهم للاعتزال عن قومهم فرارا بدينهم وعقيدتهم، لأن الجاهلية والإسلام متناقضان، فلا سبيل للالتقاء، وقد تؤثر على إسلامهم إذا لم يهاجروا، وهم على علمٍ ولا يشوبهم شك أن المشركين من قومهم لن يتركوهم حينما أقرّوا بعقيدتهم، وأنهم سيقعون في دائرة ابتلاء لا يعلم عواقبها إلا الله العليم الخبير، غير أنهم آثروا الله تعالى على سواه، والآخرةَ على الدنيا، والحقَّ على الباطل، فصدعوا بالحق، و لم تأخذهم لومة لائم.

ونرى أن طبيعة صفة الجاهلية في قصة الفتية المؤمنين هي الشرك، وهذا مما يدفعهم إلى المفاصلة الدينية، وذلك أن المجتمع المشرك لم يكن يوما متخليًا عن المؤمنين ليعيشوا في هذا المجتمع المشرك أحرارا، وهؤلاء المشركون لم يُتيحوا فرصة الاختيار للمؤمنين، فهم سيقتلوهم أو يُعبدوهم إلى دينهم، فهذا الأمر بيّن لنا القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾[٣٧٣].

---

[٣٧١] سورة الكهف: الآية ١٤.

[٣٧٢] عبد الكريم زيدان (٢)، مرجع سابق، ١/٥٧٨-٥٧٩.

[٣٧٣] سورة البقرة: الآية ٢١٧.

أدرك الفتية المؤمنون هذه الحقيقة إدراكا تاما، عندما أرسلوا أحدهم إلى المدينة لشراء بعض الطعام، قالوا مُنذرين : ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝﴾[٣٧٤]، وهذا صفة الجاهلية التي تستبدّ على البشرية في كل عصر من العصور، والمشركون لا يزالون يحاولون كل وسيلة للقضاء على المؤمنين الموحدين، ويدعوهم ويدفعوهم إلى الشرك، لأن الجاهلية دعوة بدليل قول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾[٣٧٥]، وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطبا قومه: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۝﴾[٣٧٦].

٥-٦ مسألة جهاد الحجة[٣٧٧]

قوله تعالى في قصة الفتية المؤمنين: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾[٣٧٨]، أي: بحجة ظاهرة على عبادتهم وتسميتهم آلهة، وهو كلام يُراد به التبكيت، لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، فهذا هو طريق الاعتقاد، أن يكون للإنسان دليل قوي يستند إليه، وبرهان له سلطان في النفوس والعقول، وإلا فهو الكذب الشنيع، لأنه الكذب

---

[٣٧٤] سورة الكهف: الآية ١٩-٢٠.

[٣٧٥] سورة البقرة: الآية ٢٢١.

[٣٧٦] سورة غافر : الآية ٤١-٤٢.

[٣٧٧] انظر: تحت هذا العنوان أيضا: محمد أحمد الراشد،١٤١٤هـ/١٩٩٣م، المنطلق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص١٣٣-١٤١.

[٣٧٨] سورة الكهف: الآية ١٥.

على الله، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[٣٧٩]، وفي ذلك درسٌ أن الإسلام لله ينبغي أن يُرافقه كفر بالطاغوت وأهله، ومعرفة لضلاله وضلال أهله[٣٨٠].

وهذا الأمر أساس من أسس العقيدة الصحيحة، لأن صحة الاعتقاد تستلزم مساندة بالحجج والبراهين، وإن كنا نطلب حججاً من الذين ابتعدوا عن الصراط السويّ، مع الاعتقاد أن الأمر الذي نطلبه لم يكن صحيحا، وذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[٣٨١].

والقرآن الكريم يؤكد أن الكافر لا يستطيع أن يأتي بدليل على شركه بالله سبحانه وتعالى، ومع ذلك يصرّ على الشرك والجدل في علامات قدرة الله تعالى على خلقه، ولا يفعل ذلك إلا بسبب البطر على الحق، نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾[٣٨٢]، فجملة ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ صفة لازمة جيء بها للتوكيد والتهكّم بمدّعي إله مع الله سبحانه وتعالى، لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان[٣٨٣]. وفي نظر ابن القيم الجوزية أن المؤمن عندما يواجه الكفار بحجج الله عز وجل وبيناتهَ على آراء العقول الباطلة، له أجر وثواب المجاهدين. فعدّ-رحمه الله- مواجهة الكفار بالبراهين والحجج جهادا، أي جهاد الحجة، واستدل على ما ذهب إليه قائلا: "ولا ريب أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهاد الحجة فأمر به في مكة بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝﴾[٣٨٤]، أي بالقرآن جهادا كبيرا، فهذه سورة مكية، والجهاد فيها هو التبليغ وجهاد الحجة"[٣٨٥].

---

[٣٧٩] سيد قطب، مرجع سابق، ٢٢٦٢/٤. والآية ١٥ من سورة الكهف.

[٣٨٠] سعيد حوى، مرجع سابق، ٣١٦٨/٦.

[٣٨١] سورة البقرة: الآية ١١١.

[٣٨٢] سورة المؤمنون: الآية ١١٧.

[٣٨٣] مناع القطان، مرجع سابق، ص٢٤٦.

[٣٨٤] سورة الفرقان: الآية ٥٢.

[٣٨٥] ابن القيم الجوزية، د.ت، زاد المعاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ٥٨/٢.

٥-٧ مسألة الإكراه على الكفر بعد الإيمان.

ظاهر الآية الكريمة : ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ۝﴾[٣٨٦]، يدل على إكراه قومهم لهم على الكفر والشرك، وعدم إطاعة الفتية لهم بدليل قول أحدهم عنهم: ﴿ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾، ودلّ ذلك على أن الإكراه في زمنهم ليس بعذر، وأن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة فقط، فقد صرّح الله عز وجل بعذر هذه الأمة بالإكراه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٣٨٧]، والعلم في حقيقة الإيمان عند الله العليم الخبير[٣٨٨].

ونستدل أيضا من مفهوم المخالفة في قوله صلى الله عليه وسلم: ((إنّ الله تجاوَزَ لي عنْ أمّتي الخطأ والنسيان وما استُكْرهوا عليه))[٣٨٩]، فيُفهم من قوله صلى الله عليه وسلم: ((تجاوَزَ لي عنْ أمّتي)) أن غير أمته من الأمم لم يتجاوز لهم عن ذلك.

٥-٨ مسألة اتخاذ المساجد على المقابر:

يقول الله تعالى علىلسان بعض الناس : ﴿ ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾[٣٩٠]، قال صلاح الخالدي أن القوم الذين بعث الفتية المؤمنون في زمانهم انقسموا إلى فريقين[٣٩١] :

---

[٣٨٦] سورة الكهف : الآية ٢٠.

[٣٨٧] سورة النحل: الآية ١٠٦.

[٣٨٨] أحمد فريد، مرجع سابق، ٩٢/٣.

[٣٨٩] رواه ابن ماجه، كتاب الطلاق، حديث رقم (٢٠٤٣).

[٣٩٠] سورة الكهف: الآية ٢١.

[٣٩١] صلاح الخالدي (٢)، مرجع سابق، ص٨٢-٨٣.

الفريق الأول: هم المؤمنون الصالحون، وقد طلبوا ببناء بنيان عليهم، وهو ليس مسجدا أو من أجل تقديسهم، وإنما من أجل إكرامهم بدفنهم وحفظهم داخل البنيان، ومعروف أن إكرام الميت دفنه، وقال إن إيمانهم بالله هو الذي قادهم إلى هذا الرأي، وأوحى إليهم بهذا القول، ولهذا اعتبرهم الخالدي مؤمنين.

والفريق الثاني: وهم الحاكمون الذين وصفهم القرآن بأنهم الذين غلبوا على أمرهم، وكان رأيهم أن يُبنى على أصحاب الكهف مسجد، ولاحظ روح التعالي والتسلط في قولهم: ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾، خاطبوا قومهم بجزم لا يقبل الحوار أو المناقشة.

أورد صلاح الخالدي بعض الأحاديث التي ذكرها المفسرون في النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن فيها اليهود والنصارى الذين اتخذوا من تلك القبور مساجد، منها: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرَضِه الذي لم يقم منه: ((لعنَ اللهُ اليَهودَ والنَّصارَى، اتَّخَذوا قُبورَ أنْبيائِهم مَساجِد))[٣٩٢]. ثم عقب على ذلك أن هذا الحديث وما يشابهه ذم السابقين الذين بنوا المساجد على قبور أنبيائهم وصالحيهم، بل ولعنُهم لتلك الجريمة، ويدل هذا على أن الذين صمموا على بناء المسجد ليسوا من المؤمنين الصالحين.

ومما ذهب إليه صلاح الخالدي في شأن الذين طلبوا ببناء بنيان عليهم حيث قال إنهم مؤمنون صالحون موحدون لم يرَ الباحث ذلك، لأن القرآن الكريم قد سكت عن ذكر مواصفاتهم، فقد ذكر: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أي: وبما كانوا عليه من عقيدة، ولا يحدد هنا عقيدتهم، ولكن نفهم من قول أصحاب السلطان في ذلك الأوان : ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، والمقصود منه معبد، على طريقة اليهود والنصارى في اتخاذ

---

[٣٩٢] البخاري، حديث رقم (١٢٤٤). ومسلم، ، حديث رقم (٨٢٣).

المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين، وكم يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدي الرسول[٣٩٣]

ولا وجهَ لمن استدلّ بهذه الآية على جواز بناء المساجد على قبور الصالحين، لأنها مقولة أهل الجاه والسلطان، والغالب عليهم الجهل، وهم يريدون أن يخلّدوا ذكرى هؤلاء الفتية الذين ثبتت لهم هذه الكرامة، فقولهم هذا ليس بحجة شرعية يجب المصير إليها بتسليم أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا، مع أن الحكمَ صريحٌ، والخبر صحيح في شرعنا بحرمة هذا الفعل، ولُعن فاعله، وهي أشدّ صيَغ التحريم[٣٩٤].

وردّ العلامة الألباني على هذه الشبهة في كتابه البديع: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد من ثلاثة وجوه[٣٩٥]:

الأول: أن الصحيح المتقرر في علم الأصول أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا، لأدلة كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((أعطيتُ خمسًا لم يعطهم أحدٌ قبلي ...فذكرها وآخرها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعِثتُ إلى الناس كافة))[٣٩٦]، فإذا تبيّن هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية، لو كانت تدلّ على أن جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا.

والثاني: هبْ أن الصواب قول من قال: "شريعة من قبلنا شريعة لنا"، فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا، لأن الأحاديث تواترت في النهي عن البناء المذكور، كما سبق، فذلك دليل على أن ما في الآية ليس شريعة لنا.

والثالث: لا نسلم أن الآية تفيد أن ذلك كان شريعة لمن قبلنا، غاية ما فيها أن جماعة من الناس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، فليس فيها التصريح بأنهم

---

[٣٩٣] سيد قطب، مرجع سابق، ٢٢٦٤/٤.

[٣٩٤] أحمد فريد، مرجع سابق، ٩٣/٣.

[٣٩٥] انظر: ناصر الدين الألباني، ١٩٩٦م، تحذير الساجد من اتخاذ لقبور مساجد، الكويت: جمعية إحياء التراث الإسلامي، ص٤٨-٥٠. (بتصرف).

[٣٩٦] رواه البخاري، كتاب التيمم، حديث رقم (١). وكتاب الصلاة، حديث رقم (٥٦)

كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل، بل ظاهره خلاف ذلك، فقد دلّتْ الآية: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، على أن اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور، وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل.

٥-٩ مسألة الانتقال العقيدي من الشرك إلى التوحيد في القصة:

قال الآلوسي في تفسيره أن الآية تخبر أنهم أشاروا بالجملة الأولى في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾[٣٩٧]. إلى توحيد الربوبية، وبالجملة الثانية فيها إلى توحيد الألوهية، وهما أمران متغايران وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا، ويقولون بالأولى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾[٣٩٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٣٩٩]، وجاءوا بالجملة الأولى مع أن ظاهر القصة كونهم بصدد ما تشير إليه الجملة الثانية من توحيد الألوهية لأن الظاهر أن قومهم إنما أشركوا فيها وهم إنما دعوا لذلك الإشراك دلالة على كمال الإيمان وابتدأوا بما يشير إلى توحيد الربوبية لأنه أول مراتب التوحيد، فإن توحيد الربوبية يشير إلى توحيد الألوهية بناء على أن اختصاص الربوبية به عز وجل علة لاختصاص الألوهية واستحقاق المعبودية به سبحانه وتعالى[٤٠٠].

وهكذا يجيء القصص القرآني مقررا لمسائل العقيدة وهادما للشرك بطريقة تأخذ بالألباب، وأن القصص القرآني ليس سردا لأحداث مضت وانتهت، لكنه قصص

---

[٣٩٧] سورة الكهف: الآية ١٤.

[٣٩٨] سورة الزخرف: الآية ٨٧.

[٣٩٩] سورة الزخرف: الآية ٩.

[٤٠٠] الآلوسي، المصدر السابق، ١٥/ ٢١٩.

يقوم على مخاطبة العقل من خلال حوار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم في تقرير وحدانية الله وإبطال الشرك. يقول ابن القيم: "وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية؛ من التوحيد وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، وردّ النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن، فإنه كفيل بذلك كله"[٤٠١].

يوضّح الدارس مرحلة الانتقال الإيماني بالنسبة إلى الفتية المؤمنين كما في الرسم البياني التالي:

(الشكل البياني ١/٥)

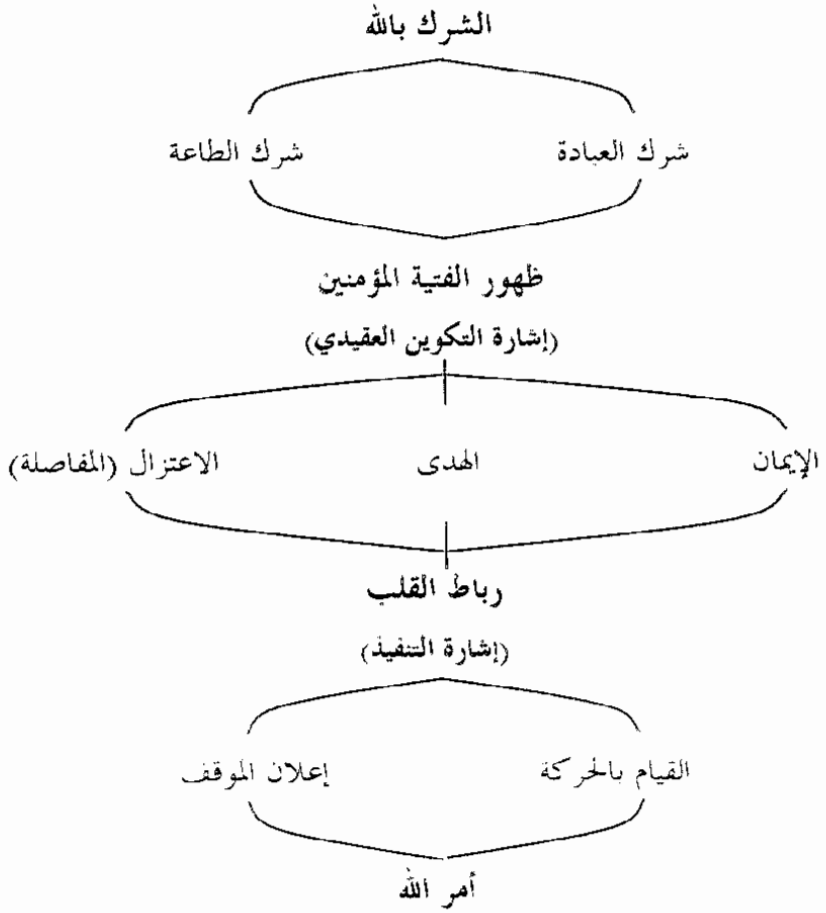

[٤٠١] ابن قيم الجوزية، د.ت، إغاثة اللهفان، د.ط/ن، ١/٤٤.

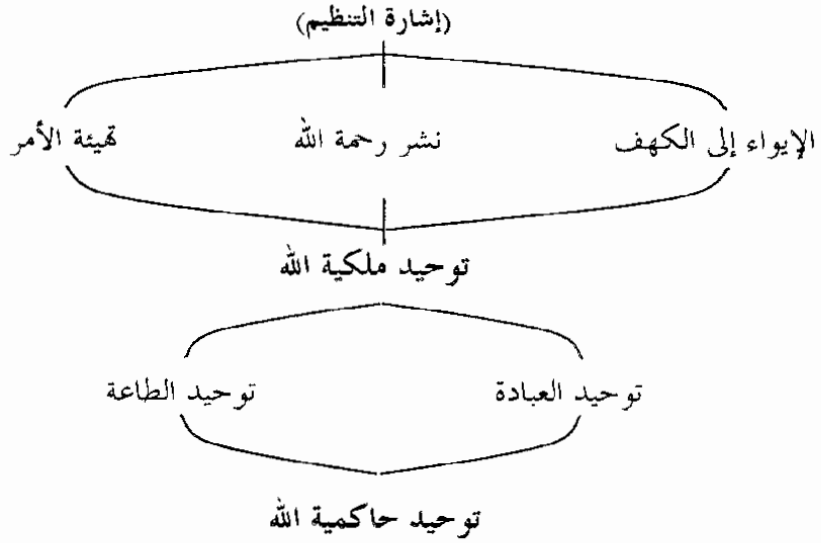
(إشارة التنظيم)
الإيواء إلى الكهف
نشر رحمة الله
تهيئة الأمر
توحيد ملكية الله
توحيد العبادة
توحيد الطاعة
توحيد حاكمية الله